

ألف حكاية وحكاية (١١٣)

التيتانيك فى نسيج العنكبوت

وحكايات أخرى

تأليف

يعقوب الشارونى



رسوم

نسيم

الناشر

مكتبة مصر

سعيد جودة السحار وشركاه

٣ شارع كامل صدقى - الفجالة

ت: ٥٩٠٨٩٢٠

حشرة فى نسيج عنكبوت هائل

هذا هو السطحُ الحقيقيُّ للباخرةِ العملاقةِ ، الذى وقفَ عليه ، منذُ ستٍّ وثمانين سنةً ، ١٥٠٢ شخصًا ، ينتظرون نهايتَهم غرقًا .

وهذا هو السورُ الحديدِيُّ الحقيقيُّ ، الذى أمسكَتْ به مئاتُ الأيدى ، تحاولُ أن تحميَ أصحابَها من السقوطِ فى الماءِ المُثْلَجِ ، وهم يرون " التيتانكِ " تغوصُ بهم إلى عمقِ أربعةِ آلافِ مترٍ ، لتختفِيَ فى أعماقِ مياهِ المحيطِ المُظلِمةِ ، بعد أن اصطدمَتْ بجبلِ الجليدِ ، وهى التى قالوا عنها إنها " سفينةُ الأحلام " التى " لا تغرقُ " .

لم يكنْ هذا هو الفيلمَ الذى تعرضه دور السينما ، لكننى شاهدْتُهُ فى متحفِ التاريخِ الطبيعِيِّ بنيويورك .

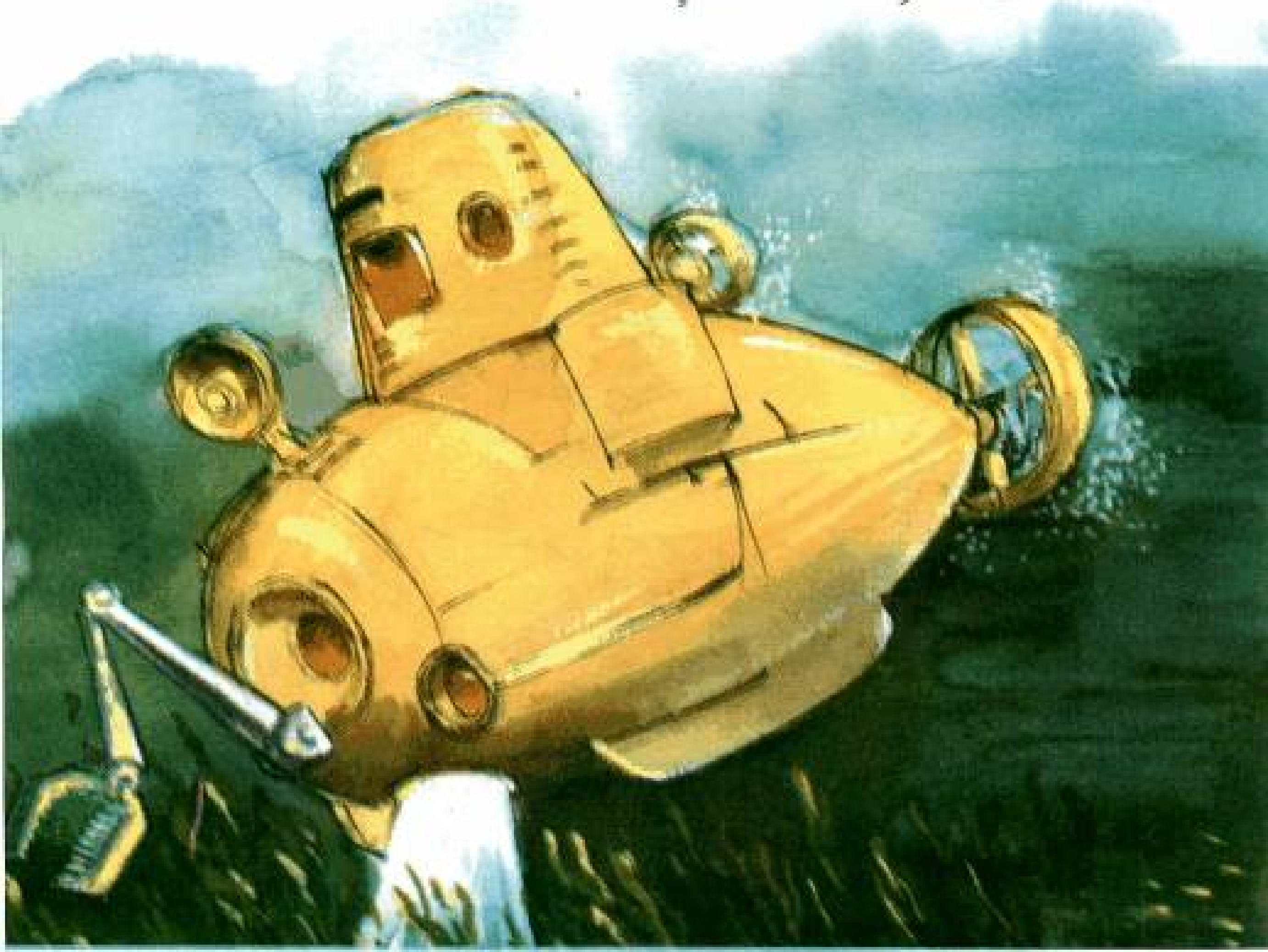
ففي عامِ ١٩٨٥ ، تمَّ اكتشافُ المكانِ الذى استقرَّ فيه حُطامُ الباخرةِ .



وفى عام ١٩٩١ ، قامَتْ بعثةٌ روسيةٌ كنديـةٌ أمريكيـةٌ ، بتصميمِ غوّاصةٍ تتحمَّلُ ضغطَ الماءِ الهائلَ عند هذا العمقِ الكبيرِ ، مُزوَّدةٍ بآلاتِ تصويرٍ حديثةٍ ، يُحرِّكُها إنسانٌ آليٌّ فى مختلفِ الاتجاهاتِ ، مع كشافاتِ ضوءٍ قويةٍ .

ونزلَ العلماءُ فى غواصتِهم ، ليعرضوا أمام عيونِنا حقيقةَ ما بَقِىَ من " سفينةِ الأحلامِ " ، فوجَدْنا البحرَ قد هزمَها ، بأكثرَ مما هزمَها جبلُ الجليدِ .

لقد اختفَتْ معظمُ معالمِها ، وسطَ تكويناتٍ غريبةٍ من الرمالِ والكائناتِ البحريةِ ، تشابكَتْ حولها ، فأصبحَتْ كأنها ذبابةٌ ضخمةٌ ، سقطَتْ فى نسيجِ عنكبوتٍ هائلٍ .



مع صديقها الدب .. فوق سفينة تغرق

كانَ عمرُهـا سبع سنواتٍ ، عندما وضعوها مع والدتِها في قاربٍ ، أنزلوه " بالونش " العملاقِ ، من فوقِ ظهرِ الباخرةِ الأسطورية " تيتانك " ، قبلَ لحظاتٍ من غرقِها سنةَ ١٩١٢ ، أثناءَ رحلتِها الأولى من أوربا إلى أمريكا .

إنها الطفلةُ " إيفا هارت " ، التي جاءَتْ ، بعد ٨٠ سنةً ، لتقدِّمَ إلينا ذكرياتِها عن المأساةِ ، في الفيلم الذي تمّ تصويرُهُ لحطام الباخرةِ في قاعِ المحيطِ .

كما قدَّمَتْ لنا صُوَرَها الفوتوغرافيةَ ، التي التقطوها لها وهي طفلةٌ ، تحتضنُ لعبةً على شكلِ دبٍّ في مثلِ حجمِها ، أثناءَ صعودِها إلى الباخرةِ .



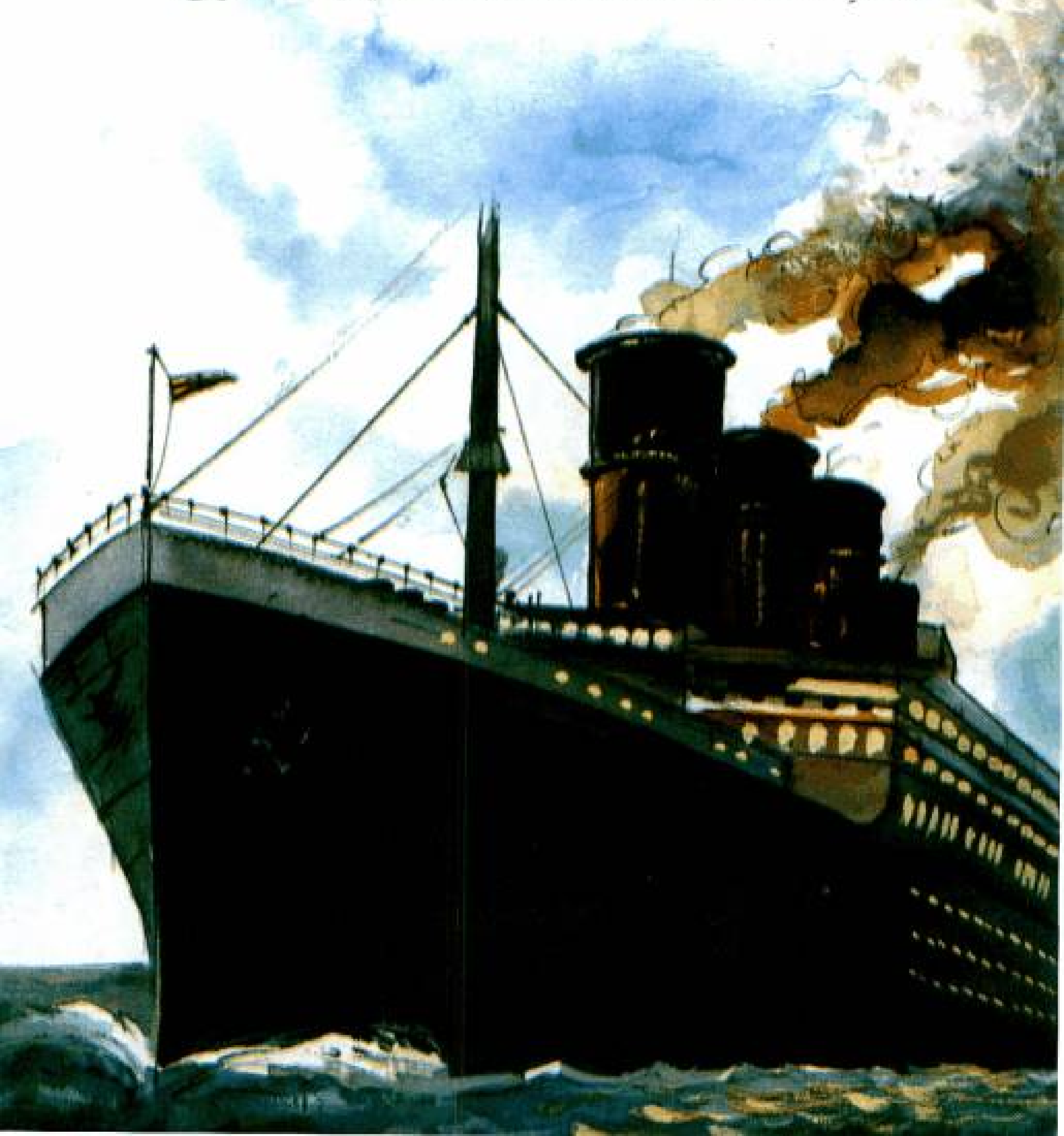
ثم صوراً لها وهى على ظهرِ الباخرةِ ، بجوار " مراجيح الأطفال " . أو وهى نائمةٌ فى غرفةٍ ، كلُّ ما فيها ينطقُ بالفخامةِ . ثم وهى تجرى فى إحدى القاعاتِ ، وكأنها فى ملعبٍ لكرةِ القدمِ ..

إنها واحدةٌ من ٦٠٠ شخصٍ فقط ، أمكنَ إنقاذُهم من الكارثةِ .

ومن " الأرشيف " ، قدَّموا لنا الصورَ الفوتوغرافيةَ للمراحلِ الحقيقيةِ لبناءِ السفينةِ العملاقةِ . فقد قضى سبعةَ عشرَ ألفَ عاملٍ ، مدةَ ثلاثِ سنواتٍ ، يعملونَ لبناءِ ذلك الفندقِ العائمِ " الخمس نجوم " ، والذى انتهى فى لحظاتٍ ، عندما احتكَّ جانبُ السفينةِ بجبلٍ جليدٍ عائمٍ ، فأصابَ ذلك الجانبَ بثقبٍ طويلٍ قاتلٍ ، تدفَّقتْ منه المياهُ إلى داخلِها ، فغرقتْ فى ساعاتٍ قليلةٍ .

ربحت من غرقها أكثر مما لو لم تغرق

" السفينة تيتانك بعد أن غرقتْ ، حققَتْ أرباحًا أضعافَ أضعافِ ما كانَ يمكنُ أن يربَحهُ أصحابُها منها ، لو أنها ظلَّتْ تعملُ خمسين سنةً في نقلِ الركابِ بين أوربا و أمريكا ولم تغرقْ في رحلتِها الأولى . "



هــذه هــى المُفارَقــةُ المُضحِكــةُ المُبكيــةُ ، التــى يتبادلُــها الأمريكيون ، تعليقًا على النجاحِ غيرِ المسبوقِ ، للفيلم الذى يحكى قصةَ غرقِ تلك السفينةِ ، الذى تَكلَّفَ ٢٠٠ مليونِ دولار (٧٠٠ مليونِ جنيهٍ مصرىٍ) ، لإعادةِ بناءِ سفينةٍ تُشبهُ السفينةَ التى غرقَتْ . وهو الفيلمُ الذى يتوقعون أن يحقّقَ أرباحًا تصلُ إلى ألفِ مليونِ دولار. (حوالى ٣٥٠٠ مليون جنيه مصرى)

ورغمَ العددِ الهائلِ من الناسِ الذين غرقوا مع السفينةِ ، بعد اصطدامِها بجبلِ الجليدِ العائمِ ، فقد تَعلَّمَ الإنسان أشياءَ كثيرةً من تلك الكارثةِ .

تعَلَّمَ أنه يجبُ توقُّعُ كلّ الاحتمالاتِ ، فالثقةُ الزائدةُ التى تؤدّى إلى عدمِ الاحتياطِ للمفاجآتِ ، قد تُسبّبُ أكبرَ الكوارثِ .

وتَعلَّمَ أنه يجبُ أن توجَدَ فوقَ السفينةِ وسائلُ إنقاذٍ ، تكفى كلَّ العددِ الذى يوجَدُ فوقَها .

وتَعلَّمَ إقامةَ محطاتٍ لرصدِ جبالِ الجليدِ العائمةِ ، تعملُ من خلالِ عدةِ أقمارٍ صناعيةٍ ، تقومُ بإبلاغِ السفنِ بأماكنِ تلك الجبالِ وبخطِّ سيرِها ، لتجنُّبِ الاصطدامِ بها .

طعام الحوت فى خطوتين

" الحوتُ الأزرقُ " هو أضخمُ حيوانٍ يعيشُ حاليًّا على ظهرِ الأرضِ ، وقد يبلغُ وزنُهُ أكثرَ من ١٠٠ طنٍّ (١٠٠ ألف كيلو جرام) ، وطولُهُ أكثر من ٣٥ مترًا .

ولولا أنه يعيشُ فى الماءِ ، الذى يجعلُ حركتَهُ سهلةً ، لما استطاعَ هذا الحيوانُ ، الذى يلدُ ويُرضِعُ صغارَهُ ويتنفَّسُ الهواءَ الجوِّىَّ ، أن يتحرَّكَ ، وذلك بسببِ ثقلِ وزنِهِ .

ورغمَ هذا الحجمِ والوزنِ الهائلَيْنِ ، فإن الحوتَ يعتمدُ فى غذائِهِ - كله تقريبًا - على الشمسِ والماءِ فقط .

فعلى سطحِ ماءِ البحارِ ، تطفو بلايينُ البلايينِ من كائناتٍ نباتيةٍ دقيقةٍ جدًّا ، اسمُها " بلانكونات " ، تصنعُ غذاءها من الطَّاقةِ



التى تستمدُّها من الشمسِ ، ومن الأملاحِ الذائبةِ فى الماءِ .

وعلى هذه الكائناتِ ، التى تتحوَّلُ فيها طاقةُ الشمسِ إلى مادةٍ نباتيةٍ ، تتغذَّى ملايينُ من الكائناتِ البحريةِ الصغيرةِ ، اسمُها " كريل " ، تُشبهُ الجمبرى الصغيرَ .

وعلى هذا " الكريل " وحدَهُ ، تتغذَّى الحيتانُ الزرقاءُ ، حتى تصلَ إلى أحجامِها الهائلةِ .

وهكذا فإن دورةَ طعامِ الحوتِ ، تتمُّ فى خطوتَيْنِ فقط ، وهذا شىءٌ نادرٌ فى الطبيعةِ . فمعظمُ الأسماكِ والحيواناتِ البحريةِ الأخرى ، تكونُ دورةُ الغذاءِ الخاصةُ بها أطولَ وأكثرَ تعقيدًا ، مع أنها أصغرُ حجمًا بكثيرٍ من الحوتِ الأزرقِ الهائلِ .



إنهم يزرعون الأسنان

رجلٌ في الستينَ من عمرِهِ ، تنبتُ له أسنانٌ جديدةٌ ، بدلاً من أسنانِهِ التي تساقطَتْ كلُّها ..

هذا حلمٌ يداعبُ خيالَ أطباءِ الأسنانِ ، وهو حلمٌ قد يتحقَّقُ خلالَ القرنِ القادمِ ، عن طريقِ الهندسةِ الوراثيةِ ، وبعد اكتشافِ كلِّ أسرارِ خلايا الجسمِ البشريِّ ، وما في تلك الخلايا من " الدنا " ، التي تأمرُ خلايا معينةً لتُصبحَ أسنانًا ، فتتكوَّنُ الأسنانُ في الفمِ ، للطفلِ أو للشيخِ .

سألْتُ الدكتورَ " مجدي الشاروني " ، طبيبَ الأسنانِ المصريَّ ، الذي يدرسُ فن " زراعة الأسنان " في أمريكا : إذن ما هي دراستُكَ التي دفعْتَ للالتحاقِ بها ثمانيةَ عشرَ ألفَ دولارٍ ، لمحاضرةٍ كلِّ أسبوعٍ ، خلالَ عامَيْنِ دراسيَّيْنِ ، وهو ما معناه أن تكلفةَ حضورِ المحاضرةِ الواحدةِ ، تصلُ إلى ألفِ جنيهٍ مصريٍّ ؟

قالَ لي : ما تُسمِّيهِ " زرع " ، هو في حقيقتِهِ تثبيتُ مساميرَ من





معدنِ " التيتانيوم " فى عظامِ الفكِّ ، وهو معدنٌ خفيفُ الوزنِ شديدُ الصلابةِ . ثم نثبّتُ أسنانًا صناعيةً على الجزءِ البارز من هذه المساميرِ ، وبهذا يشعرُ الشخصُ كأنه يستخدمُ أسنانَهُ الطبيعيةَ .

وهى عمليةٌ تستغرقُ على الأقلِّ ستةَ أشهرٍ .

لكنَّ الأسنانَ التى يتمُّ تثبيتُها بهذه الطريقةِ ، يُمكِنُ أن تظلَّ سليمةً فى الفمِ عشرينَ سنةً ، وكأننا زرَعْنا للشخصِ أسنانًا كاملةً جديدةً .

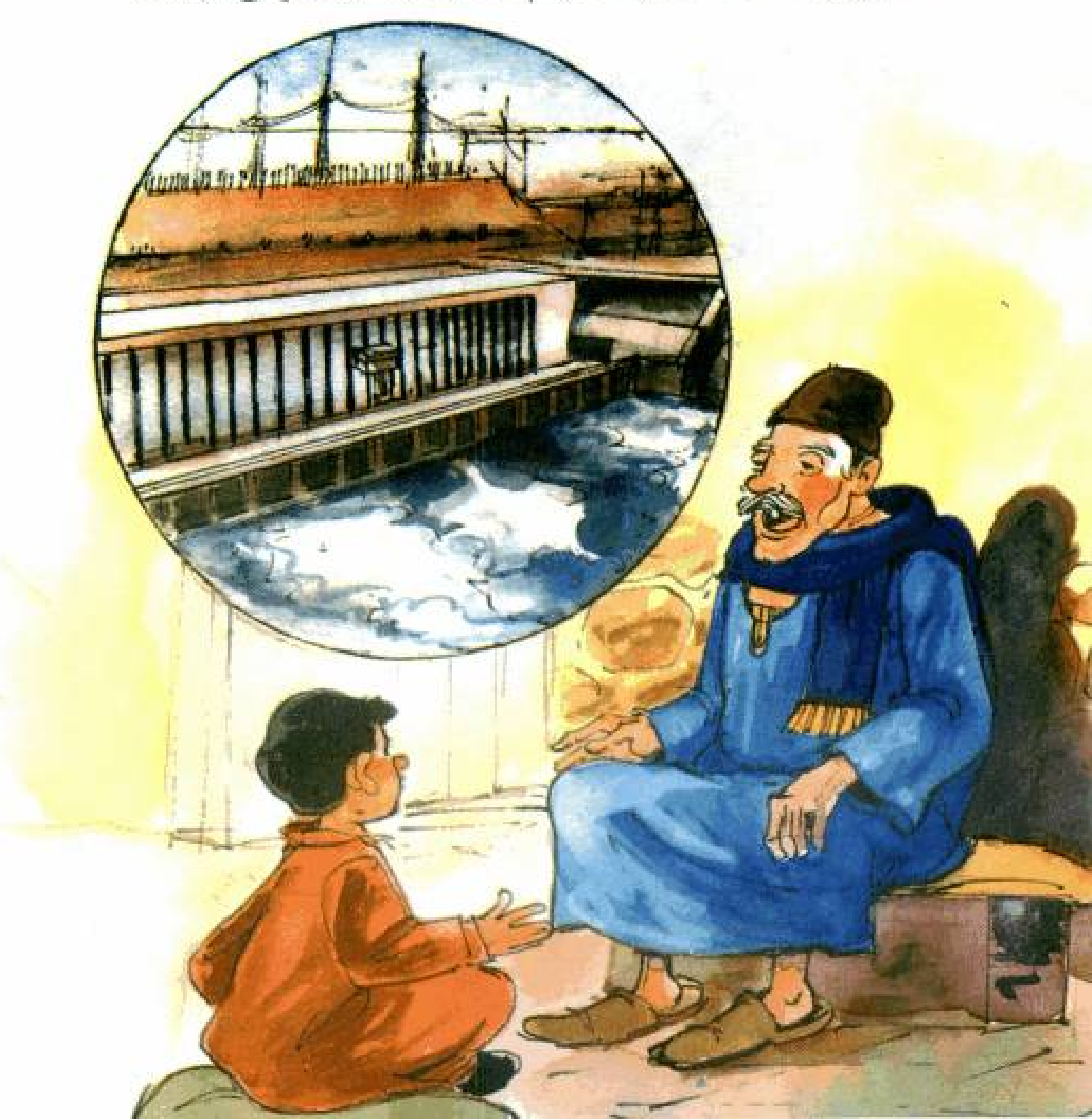
سد الخير العالى

سألَ الشاطرُ أمين ، جدَّهُ الحكيمَ عبد المعين :

" ما هى حكايةُ السدِّ العالى الذى أسمعُ عنه كثيرًا ؟ "

قال الجدُّ لحفيدِهِ :

المصريونَ القدماءُ أقاموا الأهرامَ لحفظِ أجسادِ الموتى ، إيمانًا



منهم بالبعثِ والحياةِ الأخرى . و مصرُ الحديثةُ أقامَتِ السدَّ العالِيَ ، هرمَ مصرَ الرابعَ ، لحفظِ حياةِ الأحياءِ ، إيمانًا بأننا يجبُ أن نعملَ لحياتِنا كأننا نعيشُ أبدًا ، كما نعملُ لآخرتِنا كأننا نموتُ غدًا .

فلولا السدُّ العالى ، لواجهَتْ مصرُ كارثةً كبرى فى بعض السنوات ، بسببِ الفيضانِ الشديدِ الارتفاعِ .

إن السدَّ العالِيَ هو الذى منعَ الفيضانَ ، من إغراقِ معظمِ أراضى مصرَ الزراعيةِ ، كما منعَهُ من تحطيمِ عشراتِ الألوفِ من البيوتِ فى معظمِ قرى مصرَ ، كما كانَ يحدثُ قبلَ السدِّ العالى مع كلِّ فيضانٍ شديدِ الارتفاعِ .

ولولا السدُّ العالى ، لعانَتْ مصرُ ، عدةَ مراتٍ ، من الجفافِ الشديدِ والمجاعةِ المروعةِ ، مثلما عانَتْ عشرونَ دولةً من دولِ إفريقيا ، بسببِ قلةِ إيرادِ النهرِ ، نتيجةَ ندرةِ الأمطارِ عندَ منابعِ النيلِ .

لقد أثبتَ السدُّ العالى ، أنه مثلُ صندوقِ الادخارِ أو " الحَصَّالة " ، تَخْتَزِنُ فيه مصرُ المياهَ الوفيرةَ فى سنواتِ الفيضانِ المرتفعِ ، لتسدَّ به حاجةَ الريِّ والزراعةِ والشربِ فى سنواتِ الجفافِ الشديدِ وفقرِ المياهِ ، حتى لو استمرَّ الجفافُ عشرَ سنواتٍ .

إنه العقلُ المصرىُّ ، والسواعدُ المصريةُ ، والإرادةُ المصريةُ ، التى إذا صمَّمَتْ على شىءٍ استطاعَتْ أن تُقيمَهُ وتنفِّذَهُ على أفضلِ وجهٍ ، من أجلِ الخيرِ والحياةِ .

لا تخافوا من الآلة الحاسبة

يظنُّ بعضُ النـاسِ ، أن استخدامَ الآلـةِ الحاسبةِ ، سيقضى على عددٍ كبيرٍ مـن قدراتِ الإنسانِ . لكنَّ الصحيحَ أنها ستسمحُ بتوسيعِ قدراتِ الإنسانِ ، وتعلّمُهُ الاعتمادَ على التفكيرِ المنطقِيِّ ، لحلِّ ما يواجهُهُ من مشاكلَ .

ونقدمُ هنا مثالاً يوضّحُ هذه الحقيقةَ :

نفترضُ أن عددَ البيوتِ فى الشوارعِ المحيطةِ بالمدرسةِ كالآتى : شارعُ الشمسِ بـه عشرةُ بيوتٍ .. شارعُ القمرِ به ثمانيةُ بيوتٍ .. شارعُ النجومِ به أربعة عشرَ بيتًا .. شارعُ قوسِ قزَح به تسعةُ بيوتٍ .. شارعُ الكواكبِ به ستةُ بيوت .

والمطلوبُ الإجابةُ عن الأسئلةِ الآتيةِ :

١ - هل صحيحٌ أن شارعَ الكواكبِ به أقلُّ عددٍ من البيوتِ ؟

٢ - هل صحيحٌ أنه إذا كانَ يوجَدُ فى شارعِ الكواكبِ ضعفُ ما يوجَدُ به فعلاً من بيوتٍ ، لكانَ عددُ بيوتِهِ أربعةَ عشرَ بيتًا ؟

٣ - هل مجموعُ عددِ البيوتِ فى الشوارعِ الخمسةِ أكثرُ أو أقلُّ من خمسين بيتًا ؟

٤ - اكتُب من عندِكَ جملتَيْنِ حولَ عددِ البيوتِ فى الشوارعِ



الخمسةِ ، إحداهما صحيحةٌ والثانيةُ خطأٌ .

إن هذه الأسئلةَ كلَّها ، لا تستطيعُ الآلةُ الحاسبةُ أن تُجيبَ عنها ، بل لابدَّ أن يعتمدَ الإنسانُ على تفكيرِهِ الخاصِّ في حلِّها ، حتى إذا استخدمَ الآلةَ الحاسبةَ في مرحلةٍ من مراحلِ تفكيرِهِ لحلِّ المسألةِ أو المشكلةِ المعروضةِ عليه .

الشمعة والظلام

من خلفِ زجاجِ النافذةِ، ظهرَ نورُ شمعةٍ صغيرةٍ، يتراقصُ ويتمايلُ. يخبو حينًا كأنه سينطفئُ، ويرتفعُ أحيانًا فيبعثُ الأملَ في قلوبِ السائرينَ في الطريقِ المظلمةِ القريبةِ.

وفجأةً، هبّتْ ريحٌ قويةٌ، فتحتْ زجاجَ النافذةِ بعنفٍ، وأطفأتِ الشمعةَ.

وكانَ هناك مسافرٌ يمرُّ، وصلَ أمامَ النافذةِ عندما غمرَهُ الظلامُ فجأةً، فتوقّفَ في وسطِ الطريقِ يلعنُ الظلامَ ويسبُّ العتمةَ.

كانَ يصيحُ قائلاً: " ما أبشعَ هذا الظلامَ ... أصبحْتُ أسيرُ كأنّي في بحرٍ ماؤُه أسودُ ... لن يكونَ الجحيم أكثرَ سوادًا من هذا ... "

وانتظرَتِ الشمعةُ لعلّ الرجلَ يكفُّ عن شتائمِهِ، التي انهالَ بها على الظلامِ، لكنه استمرَّ يشتمُ ويسبُّ بغيرِ توقُّفٍ.

وأخيرًا سكتَ لحظةً يلتقطُ فيها أنفاسهُ..

هنا أسرعَتِ الشمعةُ تقولُ: " كانَ الأجدرُ بكَ أن تُشعِلَني، ليُرشِدَكَ نوري مهما كنْتُ صغيرةً. فإن إضاءةَ شمعةٍ، خيرٌ ألفَ مرةٍ من لعنِ الظلمةِ. "

